القسم الأول (*)

علم الإنسان (الأنثروبولوجيا): الموضوع الرئيس.

* اعتمدنا في هذا القسم وضمن مباحثه الثلاثة على كتاب: المحامي عبدالهادي عباس «المرأة والأسرة في حضارات الشعوب وأنظمتها»، الجزء الأول، دار طلاس ١٩٨٧م. (المعذرة من المؤلف للتصرف العلمي بهذا القسم).

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول

أصل الإنسان في ميثولوجية الشعوب

الإنسان في نظر علماء الاجتماع والفلاسفة حيوان اجتماعي عاقل مفكر، وهو في نظر البيولوجي حيوان كسائر الحيوانات، ونوعه ما هو إلا واحد من ثمان مئة إلى تسع مئة ألف نوع تنتشر حالياً على سطح الأرض، وهو في نظر الأديان مخلوق أصلاً من التراب.

إن جميع التعاريف للإنسان هذه إنما جاءت عن طريقه، فهو الفيلسوف، وهو رجل الدين، وهو العالم. ولكنه قبل كل هذا وبصورة عامة يبدو لذاته، وهو خاضع للضرورات نفسها التي تخضع لها الحيوانات الأخرى، ومحكوم بالقوانين نفسها، فهو يتغذى ويتمثل ويتناسل مثلها. ولكنه بخلاف الحيوان، يأكل بغير جوع، ويشرب بغير ظمأ. كما أنه بخلاف الحيوان يتمتع بالقدرة على تفسير تركيبه البيولوجي وربما تغيره، وتنظيم سلوكه عن طريق الأشكال الرمزية كاللغة مثلاً، وبالرغم من أن عمله لم يقرر بعد إلى أي حد تشكل فيه سلوكه فإنه يبدو أنه من المحتمل - أن هذا الإنسان - لا يخضع لأنواع التنظيم المسلكي ذاته الذي يتصف به الحيوان الرئيس الأسبق.

إن الإنسان هو في غاية التنوع، وإنه ينتمي إلى سلالات (Races) إنسانية متباينة صنفها في أربع سلالات كبرى تضم في طياتها فروقاً سلالية

كثيرة . . إلا أنه رغم هذه الفروق أسبغ على نفسه أنه هو الإنسان الحكيم العاقل (Homos Sapiens)، أما الحيوانات القريبة إليه كالقردة العليا وأنواعها مما تماثله في المظهر العام (القامة وانعدام الذنب وشكل الأسنان) ومجموعة من التفاصيل التشريحية فإنها لم تستطع اجتياز الفاصل النفسي المتصل في الظاهر باختلاف كتلته الدماغية وتكوينه رغم محاولاته المتعددة بما أجراه من تجارب كي يجعلها تصل إلى ملكة التجديد واللغة والمنطق والعقل . . ولهذا بقي النوع الإنساني المنعزل عن أصناف الحيوانات الأخرى[1] رغم انتمائه إلى المملكة الحيوانية؛ ولهذا يستجمع في طبيعته تطبيق متناقضين : صفاته الحيوانية، وإنسانية حياته . إن كل معرفة الإنسان الحالية لم تمكنه أن يحدد على درجة من الدقة تلك الخصائص التي أدت به إلى أن يكون مخلوقاً فريداً . . فكل ما لديه من صفات وراثية أو تطورية وجد لها نظائر ولو بصورة بسيطة في الصور الأدنى من الأحياء .

صحيح أن قدرة الإنسان على المشي منتصباً، وتحرر طرفيه الأماميين وتقاطع مجالي بصره، وقدرته على الإبصار بالعينين معاً، وكبر قشرة مخه، وطول فترة طفولته، كل ذلك يشكل صفات بيولوجية هامة تميز الإنسان، ولكن هذه الصفات ليست خاصة بالنوع البشري، بل هي مجرد صور مبالغ فيها لاتجاهات تتمثل في كثير من المخلوقات، كما أن صنعه للأدوات والتنظيم الاجتماعي والاتصال بالأفراد الآخرين المنتمين إلى الجماعة،

---

(١) جان روستان، الإنسان، ترجمة محمد عبدالرحمن مرحبا، ص ١٧ .

توجد أيضاً بقدر معين في أنواع مختلفة من الحيوانات الأدنى .

ومجمل القول : إن ما يتميز به الإنسان ليس صفاته البيولوجية والاجتماعية بقدر ما صنعه من هذه الصفات ، فهو يختلف أساساً عن جميع أنواع الحيوانات الأخرى بفضل منجزاته المتراكمة عبر ألوف الأجيال . . ومن هذه الزاوية كان قول الفيلسوف الأسباني (إرتيجا أي جاسية) Orteia. y. Gaset : ليس للإنسان طبيعة . . بل تاريخ فقط . ولكن هذا القول لم يحل المشكلة القائمة لمعرفة تلك الخصائص التي تتميز بها الطبيعة البشرية ، والتي أتاحت للإنسان أن يكون له تاريخ[١] . وبقيت التساؤلات تفرض وجودها حول هذا النوع وكيفية نشأته على الأرض وكيفية إقامته لمجتمعه ونظمه وعلاقاته؟

لقد بقيت قصة التكوين التوراتية هي الحقيقة السائدة لفترة طويلة من عمر البشرية عن الخلق ، وفي الإصحاح الأول من سفر التكوين نجد أن الله خلق في اليوم الخامس من بدء الخليقة السمك والطيور ، بل كل الكائنات التي تعيش في الماء أو الهواء ، وأنه خلق في اليوم السادس كل صنوف الحيوان ، وأخيراً خلق الإنسان الذكر والأنثى كليهما على صورته[٢] . ومن هذه القصة يستنتج أن الإنسان قد خلق بعد أن خلقت كائنات الأرض جميعها ، كما يظهر أن تقسيم الإنسان إلى ذكر وأنثى وهو التقسيم الذي تختص به الإنسانية قد تم على يد الخالق نفسه .

---

(١) جان روستان ، الإنسان ، ترجمة محمد عبدالرحمن مرحبا ، ص ١٧ .

(٢) سفر التكوين (٢٨) .

غير أن الإصحاح الثاني يناقض هذه القصة، حيث يشير إلى أن الله تعالى خلق الإنسان أولاً ثم خلق صنوف الحيوان الدنيا من بعده، أما المرأة فقد خلقها بعد فراغه من كل هذا، وشكلها من ضلع انتزعه من الرجل في أثناء نومه.

ويشير بعض العلماء[1] إلى التناقض بين الحالتين من حيث أن الحكاية الأولى تشير إلى خلق الكائنات أولاً، ثم الإنسان بجنسيه الرجل والمرأة، أما الحكاية الثانية فتبدأ بخلق الرجل ثم يجري خلق الحيوانات الدنيا، ثم يخلق في النهاية المرأة، فخلق حواء كان لتسلية آدم وإيناس وحشته.

وستعاني المرأة في تاريخ البشرية كثيراً من هذه الأسطورة وتحكمها باعتبارها عقيدة دينية لدى الشعوب، وقد احتفظت رواية إفريقية عن أصل الخليقة بالأسطورة المروية عن كاهن بابلي تقول: (إن الإله بل قطع رأسه، وإن سائر الآلهة جمعوا الدم المتدفق منه، عجنوا به التراب وخلقوا البشر من هذه العجينة المخلوطة بالدم؛ ولهذا السبب - وكما يقول البابليون - كان الرجال حكماء كل الحكمة؛ لأن الطين الذي خلقوا منه كان مخلوطاً بدم الإله.. وتروي الأساطير الفرعونية أن (خنم) أبا الآلهة قد خلق الإنسان من الطين على دولابه الذي كان يشكل عليه الفخار.

---

(١) جيمس فريزر، الفلوكلور في العهد القديم، ترجمة د. نبيلة إبراهيم، طبعة مصر، ص ١٩٣.

obeikandl.com

وتحكي الأساطير الفرعونية أن (بروفينوس) الحكيم قد خلق الإنسان الأول من الطين. . وقد تخلفت عن عملية الخلق كمية من الطين كان من الممكن رؤيتها بعد هذا الزمن الطويل على شكل صخرتين كبيرتين في وسط بلاد الإغريق تشرفان على واد ضيق[1]. ومثل هذه الأفكار الساذجة عن أصل الإنسان التي كانت مألوفة لدى الإغريق والبابليين والسوريين والعبريين والمصريين القدماء انتقلت إلى الشعوب المتحضرة القديمة عن طريق أجدادهم. . كما يقول (فريزر)، والذي يعرض أيضاً نماذج عن تفكير الشعوب التي تتماثل أحياناً. . ومنها الرواية الشبيهة بالرواية التوراتية حيث يرى (الكارينيون) سكان بورما: (أن الله خلق الرجل ولكن من أي شيء خلقه؟ لقد بدأ يخلق الرجل من التراب، ثم أتم من بعد عملية الخلق، خلق المرأة. . ولكن من أي شيء خلقها؟ لقد أخذ ضلعاً من أضلاع الرجل وخلق منه المرأة. .)[2] وهناك أساطير متعددة أخرى لدى شعوب بدائية تتقارب وتتماثل في تصور الإنسان عن فكرة الخلق الأول، لا تتميز عن فكرة الخلق التوراتية كثيراً من حيث مضمونها. . وتدخل هذه القصص الشيطان أحياناً في هذه العملية. . وغالباً ما تشير إلى كون المرأة مصنوعة من ضلع الرجل بصورة أو بأخرى، كما تشير إليه أساطير الشعوب، وحسب تصورات العقل البشري في طفولته وخيالاته المستمدة من وجوده في هذا الكون، والطريف في الأمر أن جل شعوب العالم في

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٣.

(٢) جيمس فريزر، الغصن الذهبي، ترجمة د. أحمد أبو زيد.

obeikandl.com

عصرنا مازالت تعد مثل هذه الأساطير مسلمات لا يجوز التصدي للجدل فيها تحت طائلة عد ذلك مروقاً عن المعتقدات الدينية . . ورغم انتشار العلم وزيادة عدد المتعلمين، فإن الخوض في مثل هذه الأمور ما يزال يعرِّض صاحبه إلى كثير من المشكلات، الأمر الذي يجعل الإنسان الوريث لكثير من أمثال هذه الأساطير يعاني من تحكمها في حياته وسلوكه في هذه الحياة.

obeikandl.com